

الحلقة التاسعة والعشرون

سفر الجامعة

برنامج أنوار كاشفة

نرحب بك مستمعي العزيز في هذا اللقاء الجديد من برنامج أنوار كاشفة. بدأنا قبل عدة لقاءات بدراسة سفر الجامعة لسليمان الحكيم، والذي يُعتبر من أسفار الحكمة. وقد عالج هذا السفر معضلة مشاعر الإحباط واليأس عند الإنسان، حيث أكد أن كل شيء بعيد عن الله هو باطل وقبض الريح.

وفي اللقاء الماضي تابع سليمان الحكيم الحديث عن مشورته العملية، فتكلم أن على الإنسان الحكيم أن لا يكثر لكل كلام يُقال أمامه. وبالرغم من حكمته استنتج سليمان أن الحكمة مازالت بعيدة عنه، ولهذا قرر أن يبحث في جوهر الأشياء. وتبين لنا أن حكمة الله الفائقة قد تجلّت في صليب المسيح.

صديقي المستمع، هل تخدعك المرأة الشريرة بكلامها الملق وأسلوبها الأخاذ، فتجري ورائها؟ وهل تعلم نتيجة انجرارك خلف أمثال هذه المرأة؟ كما ذكرنا في اللقاء السابق أن سليمان الحكيم قرر أن يبحث في جوهر الأشياء. فكان لا بدّ له أن يتحدث عن هذا الموضوع الهام أيضاً، فكتب قائلاً: « فوجدت أن المرأة التي قلبها أشراك وشباك، ويدها قيود، هي أمرٌ من الموت، ومن يرضي الله يهرب منها، أما الخاطيء فيقع في أشراكها » (الجامعة ٢٦:٧ تفسيرية).

لقد اكتشف سليمان الحكيم أثناء بحثه، أن المرأة الشريرة التي تحاول خداع الشباب، وإيقاعهم بشباكها، هي أمرٌ، أي أفسى، من الموت. ولنلاحظ وصف الحكيم هنا قلب هذه المرأة الشريرة بالأشراك والشباك التي تصطاد الإنسان، وأن يديها كالقيود التي تكبله، وتفقد حريته. ولهذا لم يكن غريباً أن يقول عنها أنها أمرٌ من الموت. أي أن الموت يغدو أفضل من الوقوع في فخها. وكان سليمان الحكيم قد حذر الشباب مراراً وتكراراً في سفر الأمثال من المرأة الشريرة. وأوضح هنا أن الإنسان الحكيم الذي يريد أن يرضي الله يهرب منها. أما الخاطيء فمع الأسف يقع في أشراكها. فما هو موقفك صديقي الشاب من المرأة الشريرة؟ هل تهرب منها أم تراك تقع في أحابيلها؟

وتابع سليمان الحكيم بحثه عن جوهر الأشياء فقال: « انظر هذا وجدته قال الجامعة: واحدة فواحدة لأجد النتيجة. التي لم تزل نفسي تطلبها فلم أجدها. رجلاً واحداً بين ألف وجدت. أما امرأة فبين كل أولئك لم أجد » (الجامعة ٢٨:٢٧).

يبدو أن سليمان الحكيم حاول البحث في كل المجالات، واحدة فواحدة، لكي يصل إلى النتيجة. لكنه مع الأسف لم يجد الذي كانت تصبو إليه نفسه. أي لم يحصل على الحكمة الحقيقية التي تكشف له عمق الأمور، والتي كان يسعى إليها. ومع ذلك فإن سليمان الحكيم تابع بحثه بين البشر، ليكتشف الحكماء منهم. فقال: أنه وجد رجلاً حكيماً واحداً بين ألف رجل، لكنه لم يجد امرأة واحدة بين ألف امرأة. وهنا نسأل: هل ظنّ سليمان أن النساء غير مؤهلات للحكمة؟ والجواب كلا. لأنه في سفر الأمثال جسد الحكمة كامراً ذكية تدعو الناس لحكمتها.

لكن ما أراد سليمان الحكيم قوله، ليس أنه لم يستطع أن يجد امرأة حكيمة، بل لا يكاد يوجد إنسان حكيماً، رجلاً كان أم امرأة. فقد وجد في بحثه أن الحكمة نادرة بين الرجال، واحد بالألف، كما هي نادرة بين النساء، حتى أنه لم يجد بين ألف امرأة، امرأة واحدة حكيمة. وعلينا هنا أن نلاحظ أنه في زمن سليمان كان الرجال فقط يحصلون على التعليم الديني، أو حتى العلوم والثقافة العامة، دون النساء. لهذا لم يكن غريباً أن لا يجد الحكيم بين الف منهم امرأة حكيمة واحدة. لكن الكتاب المقدس يخبرنا عن عدد من النساء الذين اشتهروا بحكمتهم وصلاحهم.

لقد كان هدف سليمان الحكيم أن يجد من يتحلّى بالحكمة الحقة، الحكمة الإلهية. التي يستطيع بموجبها أن يسلك بالاستقامة أمام الله والناس، وأن يكون قدوة للآخرين، يساعدهم في حكمتهم وإرشاداته. فهل تراك تسعى مستمعي لكي تمتلك هذه الحكمة الحقة التي مصدرها الله؟

وفي ختام بحثه كتب سليمان الحكيم قائلاً: « انظر. هذا وجدت فقط أن الله صنع الإنسان مستقيماً. أما هم فطلبوا اختراعات كثيرة» (الجامعة ٧: ٢٩). إن النتيجة الوحيدة التي توصل إليها الحكيم، هي أن الله خلق الإنسان مستقيماً وكاملاً. لكن الإنسان هو الذي شوّه هذه الصورة الجميلة بطلبه أموراً كثيرة لنفسه. أجل، لقد خلق الله الإنسان كاملاً ومستقيماً، لكن الإنسان الأول، أي آدم وحواء، بعصيانهما لأوامر الله، أوقعا نفسيهما في الخطيئة، ولم يعودا مستقيمين وكاملين. وليس هذا فحسب، بل انفصلا عن مصدر الاستقامة والكمال الذي هو الله خالقهما، ونطلق على هذا الانفصال اسم الموت الروحي.

وعندما انفصل الإنسان عن الله ومات روحياً، تشوّهت صورته الجميلة، ولهذا أخذ يبحث عن اختراعات أو أمور كثيرة، علّه يروى نفسه العطشى إلى الراحة والسلام. لكن النتيجة كانت أن ازداد بعداً عن مصدر الراحة الحقّة، الذي هو الله تعالى نفسه، وبالتالي ازداد ابتعاده عن مصدر الحكمة.

كتب البشير لوقا في بشارته ما يلي: « وفيما هم سائرون دخل - المسيح - قرية فقبلته امرأة اسمها مرثا في بيتها. وكانت لهذه أخت تدعى مريم التي جلست عند قدمي يسوع وكانت تسمع كلامه. وأما مرثا فكانت مرتبكة في خدمة كثيرة. فوقفت وقالت يا رب أما تُبالي بأن أختي قد تركتني أخدم لوحدي؟ فقل لها أن تعينني. فأجاب يسوع وقال لها: مرثا مرثا، أنت تهتمين وتضطربين لأجل أمور كثيرة. ولكن الحاجة إلى واحد. فاخترت مريم النصيب الصالح الذي لن يُنزع منها» (بشارة لوقا ١٠: ٣٨-٤٢).

تكشف لنا هذه الحادثة عن أمر هام ، وهي أنه علينا أن نطلب أولاً شيئاً واحداً فقط، ألا وهو أن نتوجه نحو مصدر الراحة الحقّة. أجل، إن الإنسان لن يجد هناءه في أمور هذا العالم المادية الكثيرة، لكنه سيجدها فقط عندما يختار أن يتوجّه نحو مصدر الهناء الحقيقي ألا وهو الله خالقه، ويقبل الخلاص الذي أعلنه الله من خلال المخلص المسيح. فهل تراك مستمعي تؤمن بهذا المخلص الفريد؟ وعندها تنال النصيب الصالح الذي لن يُنزع منك إلى الأبد، وتغدو إنساناً حكيماً.